



تدني مستوى النحو بين طلاب العربية وكيفية تقويمه

من خلال كتابات محمود الطناحي

يونس أعنزول

طالب باحث بسلك الدكتوراه

جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة

المغرب

ملخص:

تعرضُ هذه المقالة لفكر العلامة محمود الطناحي في تناوله لقضية تدني مستوى النحو في صفوف طلاب العربية، وذلك في أفق تشخيص الوضعية المشكل، ثم إيجاد الحلول المناسبة. ويأتي اختيارنا للطناحي خاصة باعتباره خير سفير للمدرسة التراثية، واطلاعه المعرفي الواسع، ووضوح آرائه في الموضوع. وقد بنى الطناحي اجتهاداته بالانطلاق من أربع مرتكزات تشكل مكنم الداء، وهي: هجر الكتاب القديم، والاهتمام بالنظرية واجتواء التطبيق، وطغيان المدارس الأجنبية في درس النحو واللغة، وإهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو والعربية ولا سيما الحفظ.

وقد خلصت الدراسة إلى أن المرجعية التراثية للرجل قد ألفت بظلالها بشكل كبير في معالجته للموضوع، وكذلك موسوعيته العلمية، ونظرته الشمولية التي تأبى القطيعة بين العلوم خاصة وأن مظان النحو متنوعة. كما أن تحليله لم يتعامل وفق منظور تقبُّل الواقع، ومحاوله التنقيح والترقيع بإعمال تقنيات وإهمال أخرى، أو الاكتفاء بمُخرجات النظريات الديدانكية المتاحة فقط. ولكنه كان صريحاً ومباشراً انسجاماً مع قناعاته، فمنهج الرجل قائم على التغيير الشمولي.

الكلمات المفتاحية:

تدني، مستوى، النحو، محمود الطناحي، الكتاب التراثي، النظريات العربية، الحفظ.



بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة:

تأتي أهمية هذه المقالة من حيث ارتباطها بأحد المواضيع التي تمت للنحو بصلة، وذلك من منظور كونه الميزان الذي يضبط قوانين استعمال العربية. وقد طرأت على ساحة البحث منذ عقود إلى يوم الناس هذا قضايا تدريس النحو في مختلف أسلاك التعليم، وكيفية تدارك الضعف بين صفوف المتعلمين. ومن الأسباب التي أرتني للخوض في غمار هذا البحث الندوات الوطنية التي تنظمها المختبرات الجامعية والمراكز البحثية الخاصة، فقد شاركت مؤخرا بورقة بحثية بعنوان (الفراغ النحوي في المرحلة الثانوية التأهيلية وانعكاساته على سيورة تعلم العربية) في إطار ندوة دولية من تنظيم "مركز أبحاث للتكوين والدراسات".

فأحببت أن أرفد هذه المقالة بصنوها، ولكن هذه المرة من منظور تراثي خالص يسلط الضوء على كتابات العلامة محمود محمد الطناحي في الموضوع. ويتعلق الأمر بمنهج الرجل في التعاطي مع قضية تراجع مستوى النحو في صفوف طلاب العربية. وثمة جملة من البواعث التي دفعت بي إلى اختيار الطناحي والإفادة من معالجته للموضوع في هذه الظرفية دون غيره، وهي:

- الرغبة الشخصية في الالتفات إلى المدرسة التراثية، وإحياء أثرها، وإبراز آراء روادها فيما يتعلق بموضوع البحث، ولا سيما أن بعد الشقة بيننا وبين التراث، وسيطرة الاتجاهات الحديثة على دواليب التعليم قد حال بين أبناء الجيل وتراثهم بشكل كبير.

- اهتمام الطناحي بالموضوع ووضوح كتاباته فيه.

- اشتغاله بالنحو تعليما وتدرسا وتحقيقا، فقد اشتغل بمتون النحو منذ نعومة أظافره، وحاز رسالة الماجستير في موضوع نحوي هو: (ابن مُعطي وأراءه النحوية) مع تحقيق كتابه (الفصول الخمسون)، وكذلك رسالة الدكتوراه في موضوع (ابن الشجري وآراءه النحوية) مع تحقيق الجزء الأول من كتابه (الأمالي النحوية).

- كون الطناحي قد عايش التجربتين داخل أسوار المدارس والجامعات، أي تجربة التعليم التقليدي وتجربة الدعوة إلى النظريات الغربية والنقد الحديث (مخضرم).

- موسوعية الرجل، فقد جمع بين علوم اللغة وعلوم الشرع والتاريخ، فهو مشارك في العلوم كما تدل على ذلك تحقيقاته ومؤلفاته وبحوثه، وهو ما سيكسبه بلا شك بُعدا شموليا في التعامل مع موضوع الدراسة.

وعليه، فلا بد من التعريف أولا بالدكتور محمود محمد الطناحي، وإن كان المعرّف لا يُعرّف كما يقولون، ثم سنعرض لآراء الرجل في تشخيصه لداء تدني النحو على ألسنة وأقلام الدارسين، وسبل علاجه مع شيء من التعقيب والتحليل، وذلك بالوقوف عند أربعة مرتكزات رئيسة. بينما سنخصص الخاتمة للتذكير بالخطوط العريضة لمنهج الرجل واستخلاص أهم سماته ومواطن اتفاقه واختلافه مع من يخالفه الرأي.



2- ترجمة موجزة لمحمود الطناحي (عالم العربية وعاشق التراث):

هو محمود بن محمد بن علي بن محمد الطناحي المصري. ولد بمحافظة المنوفية عام 1353 هـ / 1935م، وانتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره، ونشأ فقيراً عصامياً. أتم حفظ القرآن في الثالثة عشر من عمره، وكان يعرف القراءات على وجوهها. نال الإجازة في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم عام 1958، ثم تحصل بعد ذلك على شهادتي الماجستير والدكتوراه.¹

عُيّن معيداً بمعهد الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية سنة 1963، وانتقل بعد سنتين لمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فعمل به خبيراً. ثم انتُدب أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة وكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية. قام بتحقيق كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) لمجد الدين بن الأثير في ثلاثة أجزاء، وكتاب (طبقات الشافعية) بمعية زميله عبد الفتاح الحلو في عشرة أجزاء، و(العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) لتقي الدين الفاسي، و(الغريبين)، والجزء السادس عشر والثامن والعشرين لمعجم (تاج العروس) للمرتضى الزبيدي... فكان بذلك في مصاف العلماء الذين نهضوا برسالة التحقيق من أمثال عبد السلام هارون، وعبد العزيز الميمني، ومحمود شاكر.²

من آثاره العلمية التي ألفها نذكر: (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي)، و(التصنيف والتحريف)، و(الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم)، و(الفهرس الوصفي لبعض نواذر المخطوطات)، و(الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر)، ومعجم (من أسرار اللغة في القرآن والسنة).³ أما بحوثه العلمية ومقالاته فمتناثرة كالدرر في الجرائد والمجلات وقد اهتمت غير واحدة من دور النشر بجمعها والتقديم لها.

كان الطناحي زاهداً في الصَّيِّبِ والشهرة، عاكفاً على خدمة أمته بحمة وهدوء، بعيداً عن الأضواء. وقد أجمع أصحابه وزملاؤه وتلامذته وعارفوه أنه كان على جانب كبير من الخلق والأدب والنُّبَلِ والعفة، وحُسن العشرة والوفاء، وطلاقة الوجه والعاون للناس، ورد الإساءة بالإحسان، وأنه كان آية في الظُّرفِ والنادرة وسرعة البديهة، مع صفاء ونقاء تصحبهما همة عالية والمعيّة متوقّدة.⁴

أسلم الروح إلى بارئها في السادس من ذي الحجة سنة 1419 هـ / (23-03-1999م) إثر أزمة قلبية مفاجئة. لقد كانت وفاته حدثاً صكَّ الأذان وخفقت له القلوب، ولا سيما أن الأمة قد رُزئت قبل ذلك بسنتين بوفاة شيخه محمود شاكر رحمهما الله جميعاً.⁵ وإن كانت سيرة الطناحي العلمية مما تضيق هذه الترجمة الموجزة عن الإحاطة بتفاصيلها، ففي المراجع التي اقتبسنا منها الغنية والبلغة لكل مستزيد.

3- منهجه في التعاطي مع تدني النحو (تشخيصاً وعلاجاً)

لقد رسم الطناحي منهجاً واضح المعالم، بيّن الصُّوَى في عملية تلقي العلوم العربية إجمالاً والدرس النحوي خاصة، وعبرَ في أكثر من بحث أو مقالة عن جانب من الجوانب التي تحدم هذا الهدف وتعيد للعربية مكانتها على ألسنة أبنائها وفي صفائح إبداعهم.

ومنهج الرجل في التعاطي لتراجع السليقة وتدني العلوم اللغوية في صفوف الطلبة والأساتيد على حد سواء ولا سيما علم النحو، لا يستوعبه المقال والمقالان، إلا أن يُحاضَ فيه بالعرض والتحليل والموازنة في أطروحة دكتوراه تفي بالغرض. وحسبنا في هذا المقام أن نفتصر على جانب الأسباب التي أفضت إلى تراجع الملكة اللغوية وشيوع الأخطاء النحوية عند الرجل، ومن ثم إعمال طريقة التخلية والتخلية لإحياء الطريقة التي درج عليها ودرج من قبله كذلك عليها، وهي على وجه العموم طريقة تقليدية تراثية استمرت قروناً منذ مرحلة التأسيس للنحو وقواعده إلى أن عرفت مناهج التعليم في مصر وبقية الأقطار العربية تغييرات كبيرة ترجع في مجملها إلى التأثير بالمناهج الغربية في حقل التربية والتعليم.



وقد بيّن الطناحي بواعث القصور في النحو وردّها إلى أربعة أسباب رئيسة، أشار إليه بالقول:

" ولقد تابعت قضية ضعف هذا الجيل في النحو والعربية، ورأيت أهل العلم يردون ذلك إلى أسباب كثيرة. ومع التسليم ببعض هذه الأسباب فإن الأمر عندي يرجع إلى أسباب أربعة:

❖ أولها: هجر الكتاب القديم.

❖ ثانيها: طغيان المناهج الغربية في درس النحو واللغة، وما تبع ذلك من جرأة على النحو وسخرية بالنحاة.

❖ ثالثها: الاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق.

❖ رابعها: إهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو والعربية.⁶

ثم أوضح في الحاشية بأن هذه الأسباب الأربعة عند التحقيق سبب واحد، هو نبذ التراث والانسلاخ منه، والهزء برموزه والسخرية من أشياخه. ولكنه نثرها ليسهل إيضاحها والكشف عنها.⁷

3-1- هجر الكتاب القديم:

لاشك أن الحجة السائرة بين العامة والصفوة في قضية التخلي عن الكتاب التراثي وتعويضه بالمذكرات والمختصرات تقول إلى التيسير والتحديث ومواكبة العصر. وهي حجة تبدو في ظاهرها عين الصواب ومحجّ الحقيقة، ولكن دعونا نفسح المجال للطناحي ليكشف النقاب عن قيمة الكتاب القديم في تعليم النحو.

- الشاهد النحوي:

قال رحمه الله:

" إن تدريس النحو من خلال الكتاب القديم يفتح للطالب أبوابا من المعارف تأتي من خلال الشاهد النحوي كالغنيمة الباردة.⁸ وقبل أن يشرع في تعداد أبواب المعارف التي يتحجّف بها الشاهد النحوي طلاب العلم، دكّر بحقيقة حتى تستقرّ في النفوس، وهي أن الشاهد دليل على القاعدة النحوية فهو بمثابة الدليل النقلي عند المتكلمين والأصوليين. فكيف يُستغنى عن الدليل أم كيف يحجده الجاحد. قال الجاحظ: "ومدار العلم على الشاهد والمثل".⁹

ويكفي الشاهد النحوي واللغوي كذلك أنهما مستمدان من القرآن والسنة، وأشعار العرب وكلامها وأمثالها. وهو ما يسمح للطالب بتلقي أبنية الأسماء والأفعال وأمثلة الجموع؛ مقيسها ومسموعها، وغريب اللغة، ناهيك عن الآثار التاريخية والجغرافية والكونية والاجتماعية المبتوثة في ثنايا الأمثال والأشعار، فالشاهد النحوي صلة وصل بالتراث وسند عال غير منقطع البتة يصل السلف بالخلف. هذه الحمولة المعرفية الثرة يمكن تصريفها في وجوه شتى - كما ذكر الطناحي - بما يعود بالنفع على الطالب وعلى ثقافته؛ فيوظفها في رسائل التهئة والتعزية والإخوانيات، والإنتاجات الكتابية، وحُطَب الجمعة، والكلمات المرتجلة... ثم مضى يذكر طرفا مما ما يزال عالقا بالأذهان منذ طراءة الصبا وريق الشباب، من قبيل:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

وإن مُدَّتْ الأيدي إلى الزاد لم أكنْ بأعجلهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

ولقد ذكرني ببعض الشواهد على ضعف مئّي في تحصيلها، كقول الشاعر:

ولقد أمرٌ على اللئيم يسبّي فمضيتُ ثمّة قلتُ لا يعنيني



إذا قالت خدام فصدقوها فإن القول ما قالت خدام

أما الشاهد القرآني والحديثي فينبض بالحركة ويمور بالقوة، وقرأ إن شئت في تقديم المفعول على الفاعل قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ)¹⁰، و (إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ)¹¹، و (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ)¹²، و (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا)¹³، و (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ)¹⁴، و (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)¹⁵، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه))¹⁶ ثم قارن بين هذه الشواهد وقولك: (قطفَ الوردة طفل)، فهذا الشاهد الأخير، كما وصفه الطناحي، فاز من الوسامة والقسامة بأوفر النصيب ولكنه تمثال جامد فاقد الحركة والنطق.

وقضية الحركة والسكون والحياة والجمود التي يذكرها الطناحي تعود بالأساس في نظري إلى الدواعي البلاغية التي اقتضت التقديم والتأخير، والتي أكسبت هذه التعابير القرآنية والحديثية قوة فوق قوتها، ولا سيما عند استحضر السياق الذ أثت كل شاهد، فكانت العناية والاهتمام بالمفاعيل المقدمة أقوى منها في الشاهد الأخير (الوردة). على أنه لا يضيرنا أن نمثل بهذا الشاهد الأخير وأضرابه من الأمثلة المستمدة من الحياة العامة على سبيل التيسير في البدايات دون استدبار الشواهد الموثقة في كتب التراث والقطيعة معها.

3-2- طغيان المناهج الغربية في درس النحو واللغة:

قال رحم الله في مستهل هذا السبب:

"أعرف أن هذا مَرَكَبٌ صعبٌ، وطريق مخوفٌ لمن يخوض فيه، ولا يأمن السالك فيه والمتفحِّم عليه من سوء الظن به، وإلقائه في رَدْعَةِ الحَبَالِ، وظلمات الجهل، وبيداء التخلف."¹⁷

ثم عَقَّبَ في حينه وإبانته بأنه لا يعبأ بهذا رغم تفتنه له، ولا يُلقِي له بالا لشرف المقصد، ثم لا يلبث أن يُبَدِّي إشفاقه وحذره في الآن نفسه، لا شيء إلا لتوقير الأساتذة والأشياخ الذين تلقى عنهم. وأراني كلما مضيت في الاطلاع على كلام الرجل، كلما خِلْتُه بيننا يتحدث عن واقعنا، ويتقاسم معنا الهموم والزفريات رغم أنه تخرج من دار العلوم في سلك الإجازة منذ ستينيات القرن الماضي.

قسَّم الأساتذة الذين تلقى عنهم ممن عادوا من الديار الغربية بزاد وفير من النظريات إلى قسمين، أما القسم الأول فغلب عليه القصد والاعتدال، وأما القسم الثاني فوصفه بالقول: "ومنهم طائفة قد أهتمهم أنفسهم"¹⁸ وبلغ بهم العجب والزهو حد التعسف والسخرية بالنحو وأعلامه. وعليه، فإن الطناحي لا يُحجِّر على أحد في باب نقد النحو، ولكنه اشترط جملة من القيود التي تحول دون تحول النقد والبناء إلى نقض و تهديم، فكان من جملة ما اشترط:

- النحو ليس قرآناً يُثلى ولا سنة تُروى، فهو علم كباقي العلوم قابل للنقد والتنقيح.
- كل من يتصدى لنقد علم من العلوم ينبغي أن يكون مُحيطاً به، جامعاً لمصادره. والنحو على سعته وانبساطه فإنه غير منحصر في كتب النحو.
- لا يحسن وقوف المبتدئين عند نقد العلوم، لأن مداركهم تقتصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدث في نفوسهم من بلبلة قد تُزهدهم في العلم كله.
- الإقدام على مخالفة الجماعة لا يكون إلا بعد الوصول إلى مرتبتهم، أو سبقهم جمعاً وحفظاً وتحصيلاً.

من ناحية أخرى، أشار الطناحي إلى قيد آخر يتعلق بالظرف الزماني والمكاني الأنسب لمدارسة هذه النظريات الحديثة. وبما أن النحو إنما أنشئ أساساً لتقويم الألسنة واجتناب اللحن، فإن السلك الأول من المرحلة الجامعية يقتضي بداهة الإمام بقضايا النحو لاكتساب الفصاحة والتمكن من ناصية البلاغة، والتفنن في الكتابة. ومفهوم كلامه يقتضي تأخير البث في النظريات الغربية حتى



مرحلة الماجستير والدكتوراه، لاجتناب الصدمة والبلبل التي قد يُحدثها المزج بين هذه الرافدين منذ أن يطأ الطالب قدمه الأولى في الجامعة.

وهذا الذي يذكره الطناحي قد عانينا منه الأمرين خلال تكويننا الجامعي بأسلاكه الثلاث، فلم نخفل إلا بالفتات، شيء يسير من النحو (ثم الألفية أو أقل)، وشذرات من كل نظرية لسانية، فصارت الشواهد التي حصلنا عليها كالمسوخ البالية، لا تغني قلامة ظفر. أما عن الصراع الذي كانت تدور رحاه بين أساتذة قسم اللسانيات، ونظرائهم في قسم الآداب فمما أستحيي من ذكره في هذا المقام. وعلى العموم فإن منهجية التدرج الزمني التي أشار إليها الطناحي لا تخفى على كل ذي لب حصيف.

ونقد النحو في التراث العربي قديم قدم النحو ولكن بضوابطه وأصوله، فقد أورد الطناحي طائفة من الأمثلة على ذلك منذ عهد مبكر جدا، وغالبها تدور حول التوسع في العلل النحوية، فمن ذلك:

- انتقاد ابن قتيبة النحاة انتقادا شديدا في بيت الفرزدق الذي قال فيه:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا

" رفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة... فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرضي. ومن ذا يخفى من عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه."¹⁹

- ويروى عن الأصمعي أنه أنشد بيت نهمش بن جرير:

لَيْبِكَ يَزِيدُ ضَارِعًا لِحُصُومَةٍ
وَمُخْتَبِطًا مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

بفتح الياء وكسر الكاف، بالبناء للفاعل. ولم يُعرف (لَيْبِكَ يَزِيدُ) بالبناء للمفعول، وقال: " هذا من عمل النحويين"²⁰.

3-3- الاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق:

قال رحمه الله في مستهل هذا المطلب:

" وهذا السبب غاية ونتيجة للسبب السابق، فإن كثرة الحديث عن نقد الفكر النحوي واللغوي قد مهّدت الطريق وعبدتها لهذا القدر الهائل من النظريات؛ من الوصفي والمعياري."²¹

ثم بين بأن الإشكال يستفحل عند الجيل الذي يتلقى هذه النظريات دون الإيواء إلى ركن شديد من تراث اللغة، وإنما يطرب للمنهج النفسي، والتاريخي، والاستردادي، والبنويّة والتحويلية... التي تبقى في آخر الأمر أدوات ينبغي توظيفها لخدمة التراث اللغوي والنحوي، وتحليلته والكشف عنه وتيسير التعامل معه والانتفاع به، لا أن يكون بابا للثرثرة والادعاء، صارفا عن لب العلم وأصله.

وعقد مقارنة بين هذه النظريات وعلوم اللغة بمفهومها التقليدي بما في ذلك النحو، ليوضح بأن السير في طريق هذه النظريات سهلٌ لاحتب لمن أراد أن يسلكه، فليس أيسر على الطالب من حفظ هذه المصطلحات النظرية وفهم فحواها واستحضارها في كل وقت وحين. أما فقه النصوص، وفهم كلام العرب وتدوقه وتوجيهه وتحليله فهو شيء مغيبٌ تماما عن أبناء هذا الجيل. ومثّل لهذه الفجوة بين النظرية والتطبيق بالطالب الذي يحدثك بطلاقة عن التأليف المعجمي عند العرب، ومدارسه ومذاهبه، وعيوب المعجم العربي، فإذا سألته عن مفاتيح الكلمات في المعجم (تراث - ميناء - تترى) حار وأبلس.

واستدل الطناحي في تحليله بكلام طائفة من السادة العلماء والأساتذة، كقول:



- د. كمال بشر: " أضف إلى هذا أن الاستمرار في تقديم النظريات والمبادئ العامة قد يكون مغريا إلى درجة من شأنها أن تفوت على الدارس فرصة الإسهام في المجال التطبيقي الذي يتسم بالصعوبة من بعض نواحيه، والذي يتطلب جهودا صادقة في سبيل الوصول إلى نتائج علمية، يحتاج إليها المتعلمون والباحثون جميعا."²²

- و د. محمود الربيعي حول ندوة في (الأدب المقارن) جمعته بنفر من زملاء: " وقد شَرَّق الكلام وغرَّب، وترددت مصطلحات ضخمة فيه، مثل الكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية والرمزية، بل والموضوعية، والنبوية والتفكيكية. كما ترددت أسماء رجال أجنب صنعوا بأبحاثهم مناهج البحث في الأدب المقارن... وتأملت الموقف في مكان المستمعين وبدا لي أن أقرب تشبيه يمكن أن يصدق على حالتنا الأدبية... هو حال المخبز الذي جلب كل الآلات المتطورة لينتج خبزا آليا بأعداد هائلة، والحال أنه يفتقر أصلا للدقيق... إن تلقين المناهج لطلاب العلم الذين يدرسون في الجامعات لدينا يجعلهم يتحدثون عن أعوص المناهج الغربية كأنهم أصحابها، فإذا طلبت إليهم أن يقرأوا مجرد قراءة نصا باللغة التي يُعدِّون للتخصص فيها (عربية أو أجنبية) لم يقيموا النص قراءة فضلا عن التعمُّق في فهمه بالتحليل والتركيب."²³

واختتم الطناحي بالتأكيد على أن الإسراف في النظريات والمناهج قد أضعف إحساس أبناء الجيل بالعربية الأولى، وأورثهم العجز الذي يأخذ بألستهم وأقلامهم على حد سواء.

3-4- إهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو والعربية:

أ- الحفظ:

" يشيع في أيامنا هذه كلام عجيب، يُعَّض إلى طالب العربية (الحفظ) ويُزَّهد فيه. بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تثبيت قاعدة تجعل (الحفظ) مقابل (الفهم)، وأن الطالب الذي يحفظ (صَمَّام)، وغير قادر على الفهم والاستيعاب."²⁴

ثم يمضي كعادته يُنقُض هذه الشبهة حَجْرًا حَجْرًا؛ مبينا أن هذا الكلام إن كان يصدق على العلوم المعملية والتطبيقية، فإنه لا يصدق على علوم العربية من أدب ونحو وصرف، وذلك أن تراثنا قائم على الرواية والدراسة. وقد وصل إلينا التراث في أول الأمر عن طريق الحفظ والرواية، ثم أعقبته بعد ذلك حركة التدوين. ومن أخبار الحث على الحفظ التي رواها، ما رُوي عن الأصمعي من قوله: " كل علم لا يدخل معي الحمام فليس بعلم." وقول محمد بن يسير:

أَشْهَرُ بِالْجَهْلِ فِي مَجْلِسٍ وَعِلْمِي فِي الْبَيْتِ مُسْتَوْدَعٌ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًّا فَجَمْعُكَ لِلْكَتَبِ لَا يَنْفَعُ

ولولا الحفظ لما كُتِبَ لطائفة من عباقرة العربية العُلميان أن يسجلوا لنا هذا المقدار الضخم من المعارف الإنسانية، كأبي العلاء المعري، وابن سيده (صاحب المِخْصَم والمُخَصَّص)، والإمام الترمذي صاحب السنن، والشاطبي صاحب المنظومة الشهيرة في القراءات السبع، المسماة (حِرز الأمانِي ووجه التهانِي)... ثم مضى يورد طائفة من أقوال العلماء في مركزية الحفظ في علوم اللغة وكيف أنه يعين على ترسيخ القواعد وتذكر الشواهد وتفتق الملكات، كمقالة ابن خلدون الشهيرة التي جاء فيها: " ووجه التعليم لمن يتبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم..."²⁵

ومن أمثلة المحفوظ الذي يعين على استحضار القواعد ويلملم شتاتها ما جاء في جموع القلة من قول أبو الحسن الدَّبَّاج في بيتين:

بِأَفْعُلٍ تَمَّ أَفْعَالٍ وَأَفْعَلَةٌ وَفَعْلَةٌ... يُعْرَفُ الْأَدْنَى مِنَ الْعَدَدِ



كأفلسٍ وكأثوابٍ وأرغفةٍ وغلَمَةٍ. فاحفظنها حفظً مجتهدٍ

والشيء بالشيء يُذكر فقد ذكرتي هذه الأبيات وغيرها بقول الناظم في الأسباب التسعة التي يجزم الفعل المضارع بعدها إذا اقترن بفاء السببية أو واو المعية.

مُرٌّ وادْعُ وائِهْ وسلِّ وَاغْرَضْ لِحَصِّهِمْ تَمَنَّ وَاوَجْ كَذَاكَ التَّهْيِ قَدْ كَمَلَا

أي الأمر والدعاء والنهي والاستفهام والعرض والتحصيض والتمني والرجاء والنهي، ومثاله في التمني قولهم:

لَيْتَ الْكَوَاكِبِ تَدُنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عَقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

وقد عدَّتْ الأمتلة التي تُضبط بها أبنية الكلمات وخاصة الأفعال، ولا يخفى أهمية هذا الجانب في ضبط المعاني.

ب- مخارج الحروف وصفاتها:

أشار الطناحي عامة إلى أن علم الصوتيات أساسه التلقي والمحاكاة، وضبط الحروف من جهة الصفات والمخارج، فهو يفيد في ضبط اللغة وإتقان الأداء القرآني. وهذا الضابط في التلقي مغيب عن الجامعة، بينما يُفسح المجال كالعادة للتنظير المحض.

ج- صعوبة النحو وتيسيره:

افتتح هذا المبحث بالقول:

" ضجة كبرى تتور حيناً، وتحمُّدٌ حيناً: النحوُ صعبٌ، وطريقه شائكٌ، وتحصيله عسيرٌ. "26

والذي قضَّ مضجع الطناحي هو أن كل كُسَيْلٍ وعُوَيْرٍ قد انبرى يدسُّ أنفه في النحو ويقول رأيه فيه، فهل يُسمح لغير الطبيب بإمساك السماعة وحمل المُشْرِطِ؟ ولغير المهندس بتصميم بناء أو مد جسر؟ فما بال علوم اللغة والشرع قد تصدى للقول فيها كل مُهَوِّسٍ بليد تسمى بالناقد الحاذق. وقد ردَّ هذه الظاهرة في الغالب إلى العقد النفسية، كالذي يدُمُّ طعاماً لأنه ثقيل على معدته، أو يعيب طريقاً لأنه لا يقدر على السير فيها. أفنضرب عن النحو وغيره من العلوم صفحاً لا لشيء إلا لأنها صعبة؟ أو ليست الرياضيات والفيزياء والإحياء واللغات الأجنبية عويصة ومع ذلك لا تثار عليها الشكوى من زيد أو عمرو، أو هيئة رسمية أو غير رسمية؟

وكثير مما يُراد التخلُّفُ منه من أبواب النحو ومصطلحاته نراه مبهوثاً في كتاب الله عز وجل وفي السنة المطهرة وكلام العرب، ومذكوراً في علوم أخرى كالتفسير وأصول الفقه والبلاغة. أما عن قضية الخلاف في المسائل الإعرابية فإن الفقهاء لم يضبقوا ذرعا بالخلاف الواسع داخل المذهب الواحد وبين المذاهب. والإعراب الذي تُرد إليه كل صعوبة، ويُعزى إليه كل تعقيد ليس من خصائص العربية وحدها، ففي الألمانية مثلاً تُقسَّم الأسماء - اعتباراً - إلى مذكر ومؤنث وجنس ثالث لا تعرفه العربية وهو (المحايد).

وأما عن التيسير ومخرجاته فيصنفها الطناحي بمهزلة المهازل؛ قال في هذا الصدد:

" على أن (تيسير) النحو قد سلك دروباً مُظلمة، وارتادَ طرقاً هزلية. "27

من ذلك أنهم استبدلوا (المسند) و(المسند إليه) ب(الفعل) و(الفاعل) أو (المبتدأ) و(الخبر)، وجعلوا مسوغهم أن (المسند) و(المسند إليه) المذكوران في كتاب سيبويه. وقاتم أن هذين المصطلحين لم يشيعا شيوع (الفعل) و(الفاعل) و(المبتدأ) و(الخبر)، ولسيبويه مصطلحات أخرى لم تشعن فهو يسمي (الحال) (خبراً)، ويسمي (التوكيد) (صفة) ومرة يسميه (عطفاً)، فالمعول ما استقر عليه النحاة جميعاً، وشاع في كتبهم. ومن أمثلة (التيسير) التي تُؤدِّي بها مصطلح (تكملة بالمفعول به) و(تكملة بظرف الزمان أو المكان) و(تكملة لبيان السبب)، فأين هو شرط الإيجاز في هذه المصطلحات؟



فيما يخص التبريرات التي يبني على أنقاضها دعاة التجديد نظرياتهم، يرى الطناحي بأنها تبريرات تُعفي الأساتذة من مسؤولياتهم وتجعل الطالب وحده بؤرة الاهتمام الأولى، بحجة أن مستواه جد متواضع، رغم تدرجه طيلة الأسلاك الثلاثة السابقة في تعلم النحو وحتى المرحلة الجامعية. ويفاجئنا الطناحي هنا في تشخيصه بإلقاء اللائمة على الضعف العلمي للأستاذ في المقام الأول، الذي يصل به الأمر إلى حد تضليل التلاميذ لأن فاقد الشيء لا يُعطيه. هذا المعلم ليس سوى ثمرة من ثمرات الأسباب الأربع المذكورة آنفاً (هجر الكتاب القديم، والاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق، وغلبة المناهج الغربية، وإهمال جوانب ضرورية في تعلم العربية).

وعاد الطناحي مرة أخرى ليُخْلِج ساحة الطالب من اللائمة مستشهداً بقول الأستاذ (طارق البوهي) التي جاء فيها: " لا يجب أن نفسو كثيراً على الشباب، فهم نتاج البذور التي أُقيت، والتعليم الذي أُعطي لهم، ومجالات الثقافة التي تلقوها." وذكر تجربة الغنية مع طالبات كلية البنات عندما عُهد إليه تدريس النحو برسم السنة الأولى، فوقع اختياره على كتاب تراثي (شذور الذهب لابن هشام)، وحلّى التنظير جانباً واشتغل بالتطبيق، وأعمل الجوانب الضرورية في تعلم العربية التي ذكرها. فانبهر بالنتائج ونظرات الرضى من الطالبات وحماسهن في الفصل.

4- خاتمة:

إن طريقة محمود محمد الطناحي في التعاطي مع ظاهرة ضعف علوم العربية عامة، وعلم النحو خاصة لدى المتعلمين والمعلمين على حد سواء، قد تفردت بطابعين اثنين قل نظيرهما عند من يتعاطى لهذا الإشكال المعرفي في أيامنا هذه. ذلكم أن اطلاع الرجل الواسع والمتعمق على التراث ممارسة وتنظيراً، جعله ينظر إلى الموضوع باستيعاب وشمولية. فمشاركته في العلوم وتفننه في حقول معرفية شتى ممكنه من إدراك حقيقة اتساع النحو وامتداده ليمس مختلف التخصصات اللغوية والشرعية، وكل مساس بهذا العلم بذريعة التجديد والتيسير سيلقي بظلاله لا محالة على الفروع المعرفية الأخرى، ويؤدي بالتالي إلى حصول نوع من القطيعة المعرفية التي لا تُحمد عُقباها.

والخلفية التراثية الضاربة بجذورها في كيان الطناحي لا تعني البتة الصدام مع كل رافد تجديدي يتوافق مع طبيعة اللغة. فالرجل لا ينتمي زمانياً لحقبة ما قبل النهضة العربية، فهو خريج دار العلوم الحديثة نسبياً. لذلك فقد مست النظريات الغربية الحديثة ودعاوى التجديد جزءاً من حياته العلمية بمعية أقرانه في المدرجات الجامعية، ولكنه فطن كغيره إلى ضرورة التمكن من علم النحو بأصوله الأولى التي درجت عليها الأمة قروناً من الزمن لتقوية بنیان التعبير الكتابي والشفهي لخرجي الجامعات، ثم النظر بعد ذلك في قضايا النقد الحديث والتنظير الغربي في مرحلة الماجستير والدكتوراه بما يخدم اللغة العربية، أي بعيداً عن مجرد التفوه بمصطلحات تلوكها الألسنة أو تثير البلبلة.

وبما أن الكتاب هو المفتاح الذي تلج به إلى العلم، فقد عقد موازنة بين الكتاب التراثي (من الوجيه إلى البسيط مروراً بالوسيط) ونظيره القائم على التأليفات الشخصية، والملخصات الجامعة، وكأني به يتساءل من باب الإنكار بالقول: هل جدوى الإصلاح تنحصر فقط في التخلص من الكتاب القديم؟ فمن المعلوم أن السياسات التعليمية في الوطن العربي عامة درجت على التخلص من المنظوم واستبداله بالمنثور، وتوحيد المقررات بطريقة حديثة وفق النمط الغربي في التأليف. وعلى كل حال، فإن بعض العلوم ومنها النحو قد أثبتت تفوق من يتلقى موضوعات هذا العلم من كتب التراث قياساً على الكتب المدرسية، ودونك خريجوا معاهد التعليم العتيق في المغرب الذين أتقنوا (قطر الندى) و(ألفية بن مالك)، فهم في ضبطهم للنحو قد فاتوا ذكاترة الدراسات العربية بمراحل.



ومن لوازم الضبط التي اقتبسها الطناحي من طريقة تعلمه وأكد على ترسيخها ليستقيم لسان المتعلم نجد (الحفظ)، هذه المهارة تتسجم مع علم النحو في ضبط القواعد، واستحضار الشواهد، وقد دَعَّم هذه القناعة بالعديد من الأمثلة التوضيحية التي تشد من عضدها.

إن رسوخ قدم الرجل في التراث جعل منهجه على الشاكلة التي فصلنا القول فيها في المباحث الماضية. أما الطابع الثاني لمنهج الرجل من وجهة نظري فمرده إلى مراعاة الأصول والكليات في تناول الموضوع من كافة جوانبه، وهو ما لن يروق للكثيرين من الدارسين في هذا الباب، ولا سيما أن الرجل صريح ولا يدهن، وهذا لا يعني سماحته وعدم تلطفه. فقل أن تسمع في أيامنا هذه من ينادي بالقول:

- أعيدوا الكتاب القديم ليتداوله الطلاب ويكون مكوناً رئيساً في المقرر.

- اشتغلوا بالتطبيق وخلوا التنظير جانبا، حتى يستوي عود الطالب على سوقه.

- اشتغلوا بالحفظ في عملية التقويم البيداغوجية.

- لا مكان للنظريات الغربية والنقد الحديث في مرحلة الإجازة.

هذه الأصول والكليات هي مرتكزات التغيير عند الرجل، وهو يعلم ويصرح في أكثر من مناسبة بأن فكره سيُرمى بالجمود والرجعية، ولكنه لا يرى في غير ما ذهب إليه ما يُرجى منه أن يُعيد للعربية هيبتها وللنحو بريقه. والفرق بين دعوة الطناحي المتدثرة بالتراث والدعاوى المخالفة هو أن هذه الأخيرة لا تناقش هذه الأصول التي ذكرها الطناحي في الغالب بل تحتم بأمور إجرائية، وتقنية بحتة.

وعلى العموم، فقد حاولنا أن تكون إضافتنا نوعية بالعرض لفكر الطناحي، الذي كان خير سفير للمدرسة التراثية في التعاطي مع موضوع أقول نجم النحو بين الدارسين. ولا سيما أن الدعوات للأيام الدراسية والندوات البحثية لا تنفك عن الظهور بين الحين والآخر، وهي في الغالب لا تعالج هذا الموضوع من وجهة نظر تراثية. وغير خاف على كل ذي لب حصيف أن وراء الأكمة ما وراءها، فلإن عجزنا عن الإبانة عن المنهج التراثي في الموضوع في أسلاك التعليم الأساسي المنضبط بسياسة تعليمية رسمية إلى حد بعيد، فإن هذا لا يمنع من تحريك المياه الآسنة في التعليم الجامعي، وإحياء ستة التدافع ما دامت ثمة فسحة من الحرية تسمح لنا بذلك.

والله أعلى وأعلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الهوامش:

¹ محمود الطناحي (عالم العربية وعاشق التراث)، أحمد العلاونة، دار القلم، ط: 1، 1422هـ/2001م، دمشق، سوريا، ص: 17 - 18 بتصرف.

² مستقبل الثقافة العربية، محمود محمد الطناحي، دار الهلال، ص: 8 - 9 بتصرف.

³ من أسرار اللغة في الكتاب والسنة - معجم لغوي ثقافي -، محمود محمد الطناحي، المكتبة المكية، دار الفتح للدراسات والنشر، ط: 1، 1428هـ/

2008م، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية. ص: 31 - 32 بتصرف.

⁴ المرجع السابق، ص: 28 بتصرف.

⁵ المرجع السابق، ص: 43 بتصرف.

⁶ في اللغة والأدب - دراسات وبحوث -، محمود محمد الطناحي، دار الغرب الإسلامي، ص: 506.



- 7 المرجع السابق، الصفحة نفسها بتصرف.
- 8 المرجع السابق، ص: 507.
- 9 البيان والتبيين، 1/271. نقلا عن المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- 10 سورة البقرة، الآية: 124.
- 11 سورة البقرة، الآية: 133.
- 12 سورة آل عمران، الآية: 140.
- 13 سورة الحج، الآية: 37.
- 14 سورة المؤمنون، الآية: 104.
- 15 سورة فاطر، الآية: 28.
- 16 هو من حديث أبي سعيد الخدري، من خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواها أحمد في المسند بطولها 3: 19، والترمذي في السنن، ورواه أحمد مختصراً في المسند، وابن ماجه في السنن. نقلا عن: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط: 2، 1428 هـ/2006م، القاهرة، مصر، هامش الصفحة: 5 بتصرف.
- 17 صيحة في سبيل العربية - مقالات من أجل نهضة العربية وثقافتها -، محمود محمد الطناحي، تح: أحمد عبد الرحيم، أروقة للدراسات والنشر، ط: 1، 1435 هـ/ 2014 م، عمان، الأردن، ص: 218.
- 18 المرجع السابق، ص: 219.
- 19 الشعر والشعراء، ص: 89. نقلا عن المرجع السابق، ص: 225.
- 20 فعلت وأفعلت، لأبي حاتم السجستاني، ص: 191. و الخزانة، 1/303. نقلا عن المرجع السابق، ص: 224 - 225.
- 21 في اللغة والأدب - دراسة وبحوث -، محمود محمد الطناحي، ص: 519.
- 22 المرجع السابق، ص: 522.
- 23 ترتيب الأولويات، مقالة للدكتور محمد الربيعي بجريدة الأهرام بتاريخ 1996/7/6م. نقلا عن: المرجع السابق، ص: 523، بتصرف.
- 24 صيحة في سبيل العربية، ص: 234.
- 25 المرجع السابق، ص: 237.
- 26 المرجع السابق، ص: 253.
- 27 المرجع السابق، ص: 259.